

جماليات الصّورة التّشبيهيّة في الأمثال الشّعبية الجزائريّة

The aesthetics image of simile in the Algerian folk proverbs

طالب الدكتوراه: رابع طيبي
الأستاذ الدكتور: عبد الرزاق علا

قسم اللّغة والأدب العربي - المركز الجامعي مغنية - تلمسان (الجزائر)
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي ، جامعة تلمسان.

taibi.rabah@cumaghnia.dz

تاريخ النشر: 2023/03/15

تاريخ القبول: 2022/12/15

تاريخ الإيداع: 2022/04/25

ملخص:

تُعنى هذه الدّراسة بالبحث في الصورة التّشبيهيّة الموظّفة في الأمثال الشّعبية الجزائريّة، والوقوف على جمالياتها الفنيّة، من خلال رصد أنواعها المختلفة، وكيفية بنائها ضمن تراكيبها المتنوعة، بين حضور أركان التّشبيه مكتملةً تارةً، وغياب ركن أو أكثر تارةً أخرى بُغية الوصول إلى معانيها المستهدفة، وبيان مدى تأثيرها في نفوس المتلقين لها، حيث يجمع هذا البحث بين جماليات الصّورة التّشبيهيّة، وما تختص به الأمثال الشّعبية من ألفاظٍ وجيزةٍ وعباراتٍ جميلةٍ، ومعانٍ عميقةٍ، وقد تمّ اتباع المنهج الوصفي التحليلي الذي يلائم طبيعة وخصوصية هذا العمل.

الكلمات المفتاحية: جماليات؛ الصّورة؛ التّشبيه؛ الأمثال الشّعبية؛ الجزائر

Abstract:

This study deals with similes employed in Algerian folk proverbs and explores their aesthetics. It goes from tackling their different types and discussing how they are built within their various structures, i.e., the presence of all the simile's pillars, and the absence of one or more at other times, in order to give the meanings they are meant to express. The researcher also sheds the light on their impact on the mind of readers or listeners. The focus of this research paper is on the aesthetics of the simile image, the brief wording of folk proverbs, their beautiful phrases, and their deep meanings. It also follows the descriptive analytical approach that suits the nature and specificity of this work.

key words: Aesthetics; image; simile; Folk proverbs; Algeria

مقدمة :

تُعتبر الأمثال الشعبية جنسًا أدبيًا مستحقًا للدراسة وجديرًا بالبحث، باعتباره تجسيدًا دقيقًا لحال المجتمع، في سلوكه وثقافته، ونمط عيشه، ومراكز تفكيره، إضافةً إلى ما يتسم به من جماليات بلاغية في تركيبه، لا سيما ما تعلق منها بالصورة التشبيهية، ومنه جاءت هذه الورقة البحثية لتسليط الضوء على هذا اللون البياني، من خلال ما أنتجه المبدع الشعبي الجزائري من أمثال عُرفت بثراء مضامينها، وتنوع قضاياها وقيّمها، انطلاقًا من الإشكالية الآتية:

_ ماهي مميّزات الصورة التشبيهية في الأمثال الشعبية الجزائرية؟ وكيف كان توظيف الحكيم الشعبي لها؟

فكان مستهل هذا البحث هو التعريف بالمثل لغةً، واصطلاحًا عند القدماء والمحدثين، ثم إظهار حدود الصورة التشبيهية، وبيان مركزاتها، ليتأتى بعد ذلك الجزء التطبيقي في تحليل نصوص المثل الشعبي الجزائري المنتقاة حسب تضمّنها للتشبيهات المتنوعة، والوقوف على جمالياتها الفنية.

1_ تعريف الأمثال الشعبية، والصورة التشبيهية:

1_1 تعريف الأمثال الشعبية :

حظيت الأمثال الشعبية باهتمام بالغ، وعناية كبيرة من لدن الباحثين، فكثرت الدراسات حولها، وتوالى المقاربات التي تستهدفها، وفي ذلك إشارة بيّنة، وقرينة قويّة تُظهر المكانة العليّة التي يحظى بها هذا الجنس الأدبي باعتباره أحد أبرز أشكال التعبير الشعبي، ولأجل الإحاطة به وتصوره تصوّرًا تامًا كان من الضروريّ في أيّ دراسة تستهدفه أن تستهلّ البحث ببيان تعريفه وإظهار أهميّته.

أشار ابن منظور إلى تعدد المعاني اللغوية للمثل، فذكر منها الشّبه في قولهم : هذا مثله ومثله كما يقال شبهه وشبهه، والمثل الحديث نفسه، والمثل هو العبرة، ويأتي أيضا بمعنى المقدار الذي يحذى عليه غيره، والمثال القالب الذي يُقد على مثله، والأمثل هو الأفضل، والأمثال أرضون ذات جبال يشبه بعضها بعضا ولذلك سميت أمثالا وهي من البصرة على ليلتين، والمثل (بكسر الميم):الموضع¹.

أما ابن فارس في حديثه عن مادة (م،ث،ل) فقد ربطه بالمناظرة بقوله: "الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا، أي نظيره، والمثل والمثال في معنى واحد ... تقول العرب: أمثل السلطان فلانا قتله قودا، والمعنى أنّه فعل به مثل ما كان فعله وقولهم مثل به إذا نكّل ... ويقولون: مثل القاتل جدعه، والمثلاث (بضمّ الميم والثاء) أي العقوبات، وواحدها مثلة (بفتح الثاء واللام)، ومثل الرّجل قائما انتصب ... وجمع المثال: أمثلة والمثال الفراش والجمع مثل².

وقد ذكر الميداني في مجمع الأمثال أن: "المثل مأخوذ من المثل، وهو قول سائر يشبه حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه، فقولهم مثل بين يديه إذا انتصب، معناه أشبه الصورة المنتصبة، وفلان أمثل من فلان أي أشبه بماله الفضل، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً *** وما مواعيدها إلا الأباطيل"³.

يتبين مما سبق ذكره أن المعاني والتعاريف اللغوية للمثل الواردة في المعاجم وكتب الأمثال قد جاءت متعددة، ولا شك أن أوجه هذا التنوع واتساع دائرته قد أصاب جميع الدلالات التي يمكن أن يكون عليها المثل كالتسوية والمشابهة والمناظرة وغيرها.

أما من الناحية الاصطلاحية فقد كانت أقوال القدماء والمحدثين في ذلك مستفيضة متنوعة، فهذا ابن عبد ربه الأندلسي يصف المثل بأنه: "وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعنى، والتي تخبرتها العرب وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عمّ عمومها حتى قيل: أسير من مثل، وقال الشاعر: مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ *** يعرفه الجاهل والخابر"⁴.

أشار كلام ابن عبد ربه إلى تميز المثل بخاصيّي التداول والانتشار بين الناس، إضافة إلى اتصافه بالجمع بين الألفاظ الجميلة والمعاني البليغة، وكثرة المسير، فجعله بذلك في مرتبة أعلى من الشعر، مستشهدا على شيوعه بمثل عربي وبيت شعري.

ويعرّف المرزوقي المثل على أنه: "جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من دون تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوحيه الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تُضرب، وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها"⁵.

يلاحظ أن المرزوقي قد ركّز في تعريفه للمثل على المشابهة بين مورده ومضربه، مع المحافظة على بنائه اللفظي الثابت رغم تعاقب الأزمنة، مبيّنا ما يميز به من الشّيع والتداول، وعدم اشتراط معرفة المورد وقصته، فالكثير من الأمثال نستشهد بها دون معرفة أو دراية بحادثتها الأصلية.

بينما نجد المثل عند الفارابي هو "ما ترضاه العامة والخاصة، في لفظه ومعناه، حتى ابتدئوا به فيما بينهم وفأهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتع من الدّر ووصلوا به إلى المطالب القصيّة، وتفرجوا به عن الكرب والمكرية وهو من أبلغ الحكمة، لأنّ الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في التفاسة"⁶.

بين الفارابي من خلال كلامه سالف الذكر أن كثرة تداول المثل، وتلقي عامة الناس وخاصتهم

له بالقبول، متعلق بجودته ونفاسه، إضافةً إلى سهولة إدراك الغايات، والوصول إلى المقاصد من خلاله، مع حاجة الجميع إليه على اختلاف أحوالهم، كما أنه أبرز صفة مهمة، وهي الإجماع على جودته.

وقد اهتم الباحثون والنقاد المحدثون بالأمثال الشعبية باعتبارها من أبرز الأشكال التعبيرية في الآداب الشعبية فجاءت تعريفاتهم وتصوراتهم للمثل متعددة متباينة، فقد عرّف رابح خدوسي المثل الشعبي بقوله: "يعتبر صفة الأقوال، وعصارة الأفكار عبر التاريخ الإنساني وهو زبدة الكلام الصادر عن البلغاء والحكماء، أجمع المتحدثون به عن صوابه للاستشهاد به في مواقف الجدل ومختلف ضروب الكلام"⁷، فيُشترط في المثل عنده الإجماع على صواب مضمونه، ومناسبته لمقام ذكره.

أما عز الدين جلاوي فالمثل عنده: "هو عبارة موجزة، لطيفة اللفظ والمعنى يصدر عن عامة الشعب ليكون مرآة صادقة له يعبر عن مخزونه الحضاري، وواقعه المعيش وآماله وتطلعاته المستقبلية، وهو مرتبط غالباً بحكاية وقعت سواء عرفنا قائله أم جهلناه"⁸، أي أنه لا يُلتفت فيه إلى معرفة صاحبه المرتبط بمورده مادامت عبارته موجزة، ومعناه سليماً، ومتصفاً بالتداول بين الناس.

وذكر محمد بن ناصر العبودي تعريفاً للمثل العامي، حيث أنه "كل مثل تستعمله العامة وأفراد الشعب، سواءً أكان مثلاً فصيحاً أو حرفوه تحريفاً قليلاً لم يبعد به عن نطقه الأصلي الفصيح، أم كان مثلاً فصيحاً ولكنهم غيروه تغييراً كبيراً لا يتمكن معه السامع العادي من رده إلى أصله، أم كان مثلاً استحدثوه ولا أصل له من الأمثال العربية الفصيحة، كان مثلاً نقلوه في الأزمان المتأخرة من الأقطار العربية المجاورة لهم، وليس ذا أصل عربي"⁹، وهذا تعريف شامل للمثل العامي، من حيث استغراقه جميع ألوان استعماله، ومهما كان أصل لفظه، مادام متداولاً بين عامة الناس.

نستنتج من خلال استعراض التعريفات الاصطلاحية السابقة، والتّمعّن في مدلولاتها، أنّها جاءت لتصوير مفهوم جامع يستند إلى أهم الركائز التي ينبني عليها المثل الشعبي، خاصةً ما تعلّق منها بالإيجاز الذي يُقصد به الجمع بين اللفظ القليل والمعنى السليم، إضافةً إلى الشيوخ والانتشار بين عامة الناس.

1_2 التعريف بالصورة التشبيهية:

اعتنى الدارسون والباحثون القدامى والمحدثون في مجال البلاغة بالتشبيه وجمال صورته الفنية، لوفرة حضوره في النصوص الأدبية نثراً وشعراً، لما فيه من دقة التصوير وقوة التأثير فيه تجسد المعاني المختلفة في صورٍ بديعة الحسن تأسر الأفتدة، وتشدّ الألباب، حيث أنّ "التشبيه بدلالته البينانية، وبنائه الفني وصوره العديدة قادر على استيعاب مشاعر البليغ

والتعبير عنها وتوصيلها للمتلقي بطريقة فعّالة مؤثرة، فهو إذا أحسن استخدامه يقدم لنا المعاني الذهنية محسوسة مجسّدة، تدهشنا وتنتزع إعجابنا، وتبتعد بنا عن المألوف المعتاد، وتنفض عن نفوسنا غبار الرتابة والملل¹⁰.

ورفع السكاكي من منزلة التشبيه، فجعله في مقدمة ألوان البيان، وحجته في ذلك أنك "إذا مهّرت فيه ملكت زمام التدرّب في فنون السحر البياني"¹¹، وفي السياق ذاته يُذكر أنّ "التشبيه أصل أساسي من أصول الصور البيانية لتصويره المعنى تصويراً هادئاً تنتقل منه إذا ما أردت التعمّق في التصوير إلى الاستعارة، ثمّ إلى الكناية فهذه هي الطرق المختلفة في الدلالة على المعنى وضوحاً وخفاءً"¹².

وقال عنه صاحب الطراز ميّناً مكانته: "اعلم أنّ التشبيه هو بحر البلاغة وأبو عذرتها، وسرّها، ولبابها وإنسان مقلتها"¹³، أما أبو العباس المبرّد فقد أشار إلى وفرة، إذ قال: "والتشبيه جار كثيراً في كلام العرب، حتّى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد"¹⁴. ركّزت الأقوال السابقة على بيان المكانة الرفيعة للتشبيه، إذ أنّه جوهر البلاغة ومنهاتها ولما كان بهذه المنزلة لزمننا استهدافه بحثاً، للوقوف على حقيقته وحدوده، ولأجل الإحاطة به وتصوره تصوراً تاماً وجب على كلّ دارس له ذكر أهم تعريفاته لغةً واصطلاحاً.

ورد التشبيه في المعاجم اللغوية بمعنى التمثيل والالتباس، ومن ذلك ما ذكره ابن منظور بقوله: "الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: مثله، وفي المثل: من أشبه أباه فما ظلم، وأشبه الرجل أمه؛ وذلك إذا عجز وضعف ... والجمع مشابه على غير قياس كما قالوا محاسن ومذاكير. وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبه علي وتشابه الشيطان واشتبه: أشبه كل واحد صاحبه. وفي التنزيل: مشتهياً وغير متشابه، وشبهه إياه وشبهه به مثله، والمشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات: المتماثلات، وتشبه فلان بكذا، والتشبيه: التمثيل"¹⁵.

وجاء في المصباح المنير أنّ "الشبه مثل حمل، وشبهت الشيء بالشيء أقمته مقامه لصفة جامعة بينهما وتكون الصفة ذاتية ومعنوية نحو هذا الدرهم كهذا الدرهم وهذا السواد كهذا السواد والمعنوية نحو زيد كالأسد أو كالحمار أي في شدته وبلادته وزيد كعمر أي في قوته وكرمه وشبهه وقد يكون مجازاً نحو: الغائب كالمعدوم"¹⁶.

يتبيّن من قول صاحب المصباح أنّ التشبيه قائم على الاشتراك في صفة ما مهما كان نوعها دون الاقتصار على الصفات الذاتية أو المادية وحدها كاللون أو الشكل، أي أنّها تشمل الصفات المعنوية كذلك كصفة الشجاعة، وصفة الكرم ونحوهما.

بينما أشار الفيروز أبادي إلى معنى التداخل بين أمرين إلى حدّ الالتباس بينهما في قوله: وتشابهها واشتبهها أشبه كل منها حتى التباس¹⁷، مشيراً إلى أنّ التشبيه يتجاوز المقاربة إلى صعوبة

التفريق بين الأمرين المتشابهين لشدة تطابقهما، وقوة تداخلهما.

أما في الاصطلاح فقد تعددت تعريفات البلاغيين للتشبيه، وذلك لاعتنائهم البالغ به باعتباره مقوماً رئيساً من مقومات علم البيان، فجاء كلامهم عنه متبايناً، فقد ذكر ابن الأثير أن "حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به، فإذا لم يكن بهذه الصفة، أو كان بين المشبه والمشبه به بعد، فذلك الذي يطرح ولا يستعمل"¹⁸.

ويرى ابن رشيق القيرواني أن التشبيه هو "صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم "خد كالورد" إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كئامه"¹⁹.

ركّز ابن رشيق في قوله هذا على الابتعاد عن المطابقة، واعتماد المقاربة والمشكلة بين أمرين في جزئيات قليلة أو كثيرة بينهما، فلو شابه المشبه المشبه به من كل الجهات والوجوه لعدّ نفسه، وحلّ محلّه في كل مقام، وبهذا يبطل التشبيه.

وقد استطرد السكاكي في بيان الفكرة نفسها بقوله: "لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين مشبهاً ومشبهاً به واشتراكاً بينهما من وجه وافتراقاً من آخر مثل أن يشتركا في الحقيقة ويختلفا في الصفة أو بالعكس. فالأول كالإنسانين إذا اختلفا صفة طولاً وقصراً، والثاني كالطويلين إذا اختلفا حقيقة إنساناً وفرساً وإلا فأنت خير بأن ارتفاع الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين يأبى التعدد فيبطل التشبيه لأن تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفاً له بمشاركة المشبه به في أمر، والشيء لا يتصف بنفسه كما أن عدم الاشتراك بين الشئيين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التشبيه بينهما لرجوعه على طلب الوصف حيث لا وصف وأن التشبيه لا يصار إليه إلا لغرض وأن حاله تتفاوت بين القرب والبعد وبين القبول والرد"²⁰.

نستنتج من تعريفات البلاغيين السابقة أن مدار التشبيه هو رصد مشاركة أمر ما لغيره في صفة واحدة متفردة، أو في صفات متنوعة متعددة، مع وجود اختلاف بين الأمرين في وجوه أخرى ليرتفع التناسب التام بينهما، يعتمد إليه المبدع بوصفه لونا من ألوان التصوير البياني يربط فيه بين شيئين أو أكثر، ليصل إلى جمالية الصورة من خلال اشتراك طرفي التشبيه في سمة أو سمات من دون التطابق الكلي.

2_ من صور التشبيه في الأمثال الشعبية الجزائرية:

يقوم المثل في جوهر استعماله على التشبيه، من خلال استحضار مورده ومقارنته بحدث جديد يماثله في الغاية والمغزى، وقد جاء في جواهر البلاغة أن "للتشبيه روعة وجمال، وموقع حسن في البلاغة، وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدناؤه البعيد من القريب، يزيد المعاني

رفعة ووضوحا، ويكسيها جمالا ولفظا ... ومن أساليب البيان أنك إذا أردت إثبات صفة لموصوف مع التوضيح، أو وجه من المبالغة، عمدت إلى شيء آخر تكون هذه الصفة واضحة فيه، وعقدت بين الاثنين مماثلة تجعلها وسيلة لتوضيح الصفة، أو المبالغة في إثباتها، لهذا كان التشبيه أول طريقة تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى²¹.

وتتنوع الصورة التشبيهية في الأمثال الشعبية بتنوع أشكال التشبيه الموظف فيها، حيث تظهر الصفات المشتركة بين المشبه والمشبه به التي تجعل من اشتراكهما تلاحما وانصهارا، حتى يخيل إلى المتلقي أنها واحد غير مجزوء عندئذ تتحقق غايتا البيان والتأثير.

2_1 تشبيه مكتمل الأركان وجمالية صورته:

جاء في المثل الشعبي الجزائري: "الكلمة كي البارود، إذا خرّجت ماتولّيش"، فالتشبيه في هذا المثل الشعبي كامل، تضمّن أركانه مجتمعة من مشبه ومشبه به، وحرف التشبيه، إضافة إلى وجه الشبه، فقايل هذا المثل الشعبي مائل بين الكلمة والبارود في خروجهما، وعدم عودتهما، إذ نجد أنّ المشبه باعتباره مدار صورة التشبيه قد جاء في هذا التركيب متمثلا في لفظ "الكلمة"، في حين أنّ المشبه به وهو الطرف الذي يلحق به المشبه، عبّر عنه بلفظ "البارود" أي طلقة البندقية، أما أداة التشبيه فقد تمثّلت في حرف "كي"، وصُرح بوجه الشبه في هذا المثل الشعبي بلفظة "ماتولّيش" أي أنها لن ترجع، فعدم العودة تشترك فيها طلقة "البارود" و"الكلمة"، كلاهما لا يمكن التراجع عنهما بعد خروجها، وهنا يظهر جمال التصوير من خلال استحضار صورة حسية مألوفة وربطها بما هو معنوي، ومقصده وجوب النظر في عواقب كل كلمة قبل التلّفظ بها، لئلا يحصل التدم على قولها بعد فوات أوانها.

ونجد أيضا المثل الشعبي القائل: "لمرا كي الشعيرة وين زرعها تنبت" وفيه تشبيه مكتمل الأركان من مشبه ومشبه به، وأداة التشبيه ووجهه، والمقصود أنّ المرأة كحبة الشعير في القدرة على التأقلم والتكيف مع مختلف الأحوال والظروف، فهي خاصة بعد زواجها تفارق بيئة ألفتها ودارا سكنتها، إلى بيئة جديدة، ودارا أخرى لا عهد لها بها، بيد أنّها سرعان ما تتعود عليها وتأنس بها، لتصير مملكتها التي تنجب وتربي فيها أبناءها، وفي هذه الصورة تظهر جمالية التمثّل بالطبيعة التي يصل من خلالها المتلقي للمعنى، ويدركه بسهولة ويسر، وذلك سبيل لقوة التأثير فيه.

يُعتبر الحسد من الأخلاق السيئة التي تأبأها النفوس الكريمة، وترفضها الطباع السوية كما يبتعد عنها كلّ نبيل ذي خُلُقٍ حسنٍ، وقد جاءت في الثقافة الشعبية الجزائرية عدّة أمثال تبين قبحها، وترشد الناس إلى اجتنائها، ومثّل قولهم: "الحاسد كيما عود أثقابة يحرق زوحو قبل ما يحرق الغابة"، في جملة مثلية مكتملة الأركان، حيث تمّ تشبيه الحاسد بعود الثقاب في تصوير يجمع بين الجمال والدقة، بتوظيف أداة التشبيه (كيما)، مع التصريح بوجه الشبه في

قولهم: (يَحْرِقُ رُوحُو قَبْلَ مَا يَحْرِقُ الْعَايَةَ)، والمقصود هو المقاربة بين احتراق عود الثَّقاب بجذوته قبل أن يوقد غيره، وبين الأذى والضرر اللذان يقعان على الحاسد أولاً قبل أن يتأذى المحسود، وذلك لمصاحبة الحسد للغلّ والغيط، والكثير من المشاعر السلبية التي تؤدي حتماً إلى هلاك الحاسد، وقد قيل قديماً: لله در الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله.

ومن الأمثال الشعبية الجزائرية التي تحضر فيه أركان التشبيه مكتملة قولهم: "الْقَرَايَةُ كِي الشَّمْسُ اتْنَعَتْ الطَّرِيقُ، وَتَوَرَّى الرُّفِيقُ"، حيث أنّ المشبه هو طلب العلم (القراية)، والمشبه به (الشمس)، وأداة التشبيه (كي)، أمّا وجه الشبه فهو وضوح الطريق، وظهور المخفي من الوجوه بفعل نور الشمس الذي يضيء الأرجاء، ويبدد الظلمة الحالكة، وذلك حال العلم الذي يطرد الجهل، وبه ستنار البصائر، وتحيا العقول، وبسببه تظهر حقائق الأمور ويُتوصل من خلاله إلى الفهم الصحيح، وينقلب معه الغامض إلى ظاهر صريح، ليتجلى جمال التصوير في توظيف ما كان مادياً مُدرَكًا، والتدليل به على المقصود غير المحسوس.

ونجد في باب الصداقة المثل الشعبي الجزائري القائل: "الصَّاحِبُ ابْحَالُ الْعَرَعَارِ يَدَاوِي كُلَّ لَضْرَارٍ"، حيث يظهر جلياً حضور أطراف التشبيه الأربعة، بدايةً من المشبه الذي جاء في هذا التركيب متمثلاً في لفظ "الصَّاحِبُ" وهو الصديق، وعُبر عن المشبه به بكلمة "العَرَعَار" وهو نبات جبلي طبي، أمّا أداة التشبيه فقد كانت مذكورة في هذا المثل بلفظ "ابحال"، بينما جاء وجه الشبه مصرحاً به في جملة "يداوي لَضْرَارٍ"، إذ تمّ تشبيه الصديق بنبات العرعار المعروف بفوائده الطبية العديدة، فكان مناط الممثالة في هذه الصورة التشبيهية البديعة هو المنافع الجليلة للمشبه والمشبه به معاً، فكما للعَرَعَار خصائص علاجية لمختلف الأمراض العضوية فإنّ للصديق مزايا عظيمة تُعرف عند الرّخاء والشدة، تجعله علاجاً للروح وراحةً للنفس، منها صدق النصيح والتوجيه عند الحيرة، إضافةً إلى المساعدة والمساندة عند المصاعب، وكذلك المآزره والمواساة عند المصائب.

2_ تشبيه غير مكتمل الأركان وجماليه صورته:

يُعدّ التشبيه المفضل الذي "لم يُذكر فيه وجه الشبه"²² متواجداً بكثرة في الأمثال الشعبية الجزائرية، ومنها قولهم: "تَكْبُرِي يَا كَنَّةٌ وَتَوَلِّي كَيْمًا أَنَا"، فطرفا التشبيه هنا هما (الكَنَّة) وهي زوجة الابن التي تمثل المشبه، و(أنا) المقصود بها والدة الزوج الذي يتحدث المثل بلسانها، وهي المشبه به، في حين أنّ أداة التشبيه قد عُبر عنها بلفظة (كيما)، بينما لم يُذكر وجه الشبه، غير أنّه يفهم من السياق، فتوجه والدة الزوج كلامها إلى زوجة ابنها لتذكّرها بمآلها في الحياة، فقد كانت مثلها يوماً عروساً شابة ثم صارت عجوزاً لها في بيتها عروس شابة، وهي بذلك تنصحها بحسن العشرة، فهي حتماً ستمر التجربة نفسها، وستطلب المطلب عينه، وفي هذا صورة

جمالية متفردة حيث تجتمع النهايات بالبدايات، وترسم الطريق لكل نبيه متدبر في هذه الحياة. ونجد من النوع ذاته الذي يغيب عنه التصريح بوجه الشبه قولهم: "كي النار تحث الثن" حيث يشير هذا المثل الشعبي إلى النفاق، لما تختفي النوايا السيئة خلف المظاهر الحسنة وتستر بلباسها، ويقال في ذلك الشخص الذي تبدو عليه الطيبة بينما أعماله الخفية خبيثة، وجاءت جملة المثل متضمنة أداة التشبيه "كي"، أما المشبه به فهو النار، بينما لم يُذكر المشبه صراحةً، بيد أنه يُقدّر حسب سياقه على المنافق الذي يضمّر خلاف ما يظهر، ويقوم بأعمال الشر متسترًا بالخير، وتظهر جمالية هذه الصورة التشبيهية في توظيف لفظة "النار" التي تتميز بالهبة والأذية، فتطبع في نفسية المتلقي مشهدا بديعا يؤثر فيه ويصل به إلى المعنى المراد. ومن أنواع التشبيه نجد التشبيه المؤكد، وهو ما حذفت منه أدواته²³، فيتجانس المشبه بالمشبه به فكأنهما واحد في صورة فنية أسرة، ومن ذلك نجد المثل الشعبي القائل: "في الوجه امرأة، وفي الظهر أمقص"، وتلك حال الشخص المنافق الذي يؤدي غيره غيبا، ويتودد إليه ويمدحه حضورا، فهو يجمع بين جمال المرأة صفاء ووضوحا وبين حدة المقص تمزيقا وتقطيعا وفي تصوير مماثل يقول المثل الشعبي: "جنب ذيب، وجنب سلوقي" وقد غابت أداة التشبيه ليرز التلاحم جليا بين طرفيه، للدلالة على المزاجية بين صفتين متضادتين في شخص واحد يتلون بهما ويتقمص ما يناسبه منهما حسب المقام والظروف.

ومن ذلك أيضا المثل الشعبي القائل: "الكريم غابة والناس فيه حطابة" جملة مثلية تتضمن تشبيهين بليغين حذف من كليهما أداة التشبيه ووجهه، فنجد في الشطر الأول تشبيه الإنسان الكريم بالغابة لكثرة عطائه وعظيم سخائه، وهو بذلك يماثلها لوفرة وتعدد فوائدها من ثمار يُستطاب أكلها، وظلال يُفزع إليها عند الحرّ، وأخشاب يُصنع منها الأثاث والمتاع، أما في الشطر الثاني فقد شبه صاحب المثل الشعبي من يحيطون بالإنسان الكريم، ويتنعمون بجوده بالخطابين الذين يقطعون أخشاب الغابة للاستفادة منها في التدفئة أو أعمال النجارة أو لعلهم يبيعون حزم الحطب لتدّر عليهم ما ينفقونه في حاجاتهم وحاجات أهلهم، وفي هذا المثل صورة تشبيهية فائقة الحسن، قاربت بين الكريم والغابة، وبين المكرمين والخطابين في تصوير فني لمظهر من مظاهر الطبيعة التي تجد فيه النفس البشرية الراحة والطمأنينة، في ذلك حضّ للسامع على خلق الكرم ودعوته إليه.

وتأتي الصورة التشبيهية في الأمثال الشعبية الجزائرية غالبا مبتورة من أداة التشبيه، ووجه الشبه، لأجل تقليص المسافة بين المشبه والمشبه به، ذلك أن تقاربهما يجعل التأثير في نفسية المتلقي بالغًا، فتكتسي جملة المثل عندئذ حلة فنية تتعلق بها الأفتدة، إذ أن "حذف الوجه والأداة يوهم اتحاد الطرفين، وعدم تفاضلهم، فيعلو المشبه إلى مستوى المشبه به

وهذه هي المبالغة في قوة التشبيه، أما ذكر الأداة فيفيد ضعف المشبه، وإحاقه بالمشبه به، كما أنّ ذكر الوجه يفيد تقييد التشبيه، وحصره في جهة واحدة²⁴، منها المثل القائل: "الدُّنْيَا حَيْفَةٌ وَطَلَّاهُا كُلاَّبٌ" ومقصده كشف حقارة الدنيا ووضعها، وخذلانها لمن يشتغل بها ويسعى خلفها متناسيا آخرته التي فيها معاده ويشبه من يتبعها بالكلب الذي يتغذى بالجيف غير مبالٍ بقبحها وكرهية ريحها.

وفي السياق ذاته نذكر مثلاً آخر يعبر عنه المثل الشعبي القائل: "الدُّنْيَا اسْقِيفَةٌ، وَالْآخِرَةُ دَارٌ"، وقد حوت جملة هذا المثل تشبيهين بليغين لم يذكر فيهما أداة التشبيه ووجهه، والمقصد منه أنّ الدنيا كالممر، والآخرة كالدار التي فيها المقر، فحياتنا الأولى محطة عبور، أما الخلود فهو في الدار الأخرى، واللّيب من عمل لمعاده، وجعل من الدنيا مطيةً للآخرة، ولم يغتر بنعيم زائل وملذات فانية، بل يتزود بالأعمال الصالحة لما بعد الموت من نعيم مقيم، وهي صورة تشبيهية جميلة جاء من خلالها المثل في طابع وعظي مؤثر.

كما نجد كذلك في هذا النوع من الصّور التشبيهية التي حُذفت منها أداة التشبيه، ووجه الشبه المثل الذي يقول: "أَلِيَّ اذَّالَكَ حَبَّالُكَ" والمعنى المراد من ذلك أنّ من أخذ له شيء غصبا فهو كالمُدخّر له، وفي ذلك تصوير فنيّ جميل يجد فيه الفاعل تعزية وسلوى عن ضياع متاعه وتُعدّ للأخذ نصيحة وتحذيراً له من جريمة أخذ ما لا يملك بغير وجه حق.

وفي نوع تشبيهي آخر غير مكتمل الأركان نجد قولهم: "كِي الْخَاتَمُ فِي صُبْعُو" يضرب هذا المثل الشعبي لمن ينقاد ويخضع لغيره بسهولة²⁵، وقد جاء المشبه محذوفاً، فهم ضمناً من السياق على أنّه ذلك الشخص الذي يسلم زمام أموره لغيره، ويترك له حرية توجيهه كيفما شاء دون أدنى اعتراض أو أقل امتعاض، أما المشبه به فهو الخاتم الذي في يد الشخص المتحكّم لسهولة الوصول إليه، والتصرف فيه تدويراً وقلبا، أو لبساً ونزعاً، وهو وجه الشبه الذي جاء محذوفاً في جملة المثل، وأما أداة التشبيه فقد وظّف المبدع الشعبي (كي) التي يغلب استعمالها في هذا اللون الأدبي، فجاءت الصورة التشبيهية في قالب جمالي يوظف المحسوس المعروف للدلالة على المجرد المقصود.

ومن الأمثال التي يغيب فيها التصريح بالمشبه قولهم: "كِي الْقَادُومُ تَجَبَّدُ غَيْرَ لَحْجَرُهَا" يُضرب مثلاً للرجل يسعى في مصلحة نفسه²⁶، فنجد المشبه به (القادوم) وهي أداة تُستخدم للحفر والنحت، ويكون سحماً مستخرجات الحفر إلى داخلها، وذلك هو وجه الشبه بينها وبين الشخص الذي يبحث عن ما ينفعه وحده، دون أن يكثرث بغيره، فلا تهمّه إلا حاجاته، أما أداة التشبيه فقد استخدمت (كي)، والمتأمل في هذا التركيب يدرك حتماً جمال التصوير الفنيّ، الذي يركز على استحضار وظيفة لأداة معروفة، وربطها بخلق الأنانية في الأشخاص المتصفين به.

خاتمة :

يخلص هذه البحث الذي اتخذ من الأمثال الشّعبية الجزائريّة مجالاً للدراسة الفنية، من خلال إظهار جماليات الصّورة التّشبيهيّة الموظّفة فيها إلى جملةٍ من النّتائج نذكر منها:

- _ تُبنى جُملة المثل في أساسها على ربط الأمور بأشبابها ونظائرها، حيث يقوم المثل في جوهر استعماله على التشبيه، من خلال استحضار مورده، ومقارنته بحدث جديد يماثله في الغاية والمغزى.
- _ اتصفت الأمثال الشعبية الجزائريّة بجمالية الصّورة التّشبيهيّة الموظّفة في تراكيبها البديعة.
- _ التّشبيه وسيلة من وسائل البيان، تبرز الصّفة الغالبة في المشبه، وتقارنها بصفة أخرى في المشبه به.
- _ يعتمد المبدع إلى التّشبيه بوصفه لونا من ألوان التّصوير البياني يربط فيه بين شيئين أو أكثر، ليصل إلى جمالية الصورة من خلال اشتراك طرفي التّشبيه في سمةٍ واحدةٍ، أو سماتٍ متعدّدةٍ من دون التّطابق الكلّي.
- _ تفتن قائل المثل الشّعبي الجزائري للعلاقات الخفية بين الأشياء، ومقارنتها بأسلوب يشدّ المتلقي ويؤثّر فيه.
- _ جاءت الأمثال الشّعبية الجزائريّة زاخرةً بألوان التّشبيه المختلفة، منها ما كان مكتمل الأركان، ومنها ما غاب عن تركيبه ركنٌ أو أكثر.
- _ تنوعت أدوات التّشبيه في الأمثال الشّعبية الجزائريّة، فجاءت حروفها وكلماتها متعدّدةً منها (كي، كيما، بحال...).

الهوامش:

¹ ينظر ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ، ج11 ص: 610-616.

² ابن فارس أبو الحسين أحمد زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، مج5، باب الميم والناء وما يثلثهما، مادة (مثل)، دار الجيل بيروت، دت، ص: 296، 297.

³ أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، مج1، ص13.

⁴ ابن عبد ربه الأندلسي أحمد بن محمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ ج3، ص: 3.

⁵ جلال الدّين السيوطي، المزهري في علوم اللّغة وأنواعها، تح فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998م، ج1، ص: 375.

- ⁶ جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج1، ص: 374 – 375.
- ⁷ راجح خدوسي، موسوعة الأمثال الشعبية، دار الحضارة، الجزائر، 1997، ص5.
- ⁸ عز الدين جلاوي، الأمثال الشعبية الجزائرية بسطيف، مديرية الثقافة، سطيف، 2007م، ص11.
- ⁹ محمد بن ناصر العبودي، الأمثال العامة في نجد، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض 1979م، دط، ج1، ص17.
- ¹⁰ عبد الفتاح عثمان، التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني، بتصرف، مكتبة الشباب المنيرة، 1993، ص61.
- ¹¹ السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ج1، ص: 331.
- ¹² حفي شرف، التصوير البياني، مكتبة الشباب، ط2، القاهرة، 1973، ص: 18-19.
- ¹³ العلوي يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، القاهرة 1914م، ج1، ص: 326.
- ¹⁴ المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، حققه وعلق عليه وصنع فهرسه د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1997، ج2، ص: 79.
- ¹⁵ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج13، ص: 503.
- ¹⁶ الفيومي أبو العباس أحمد بن محمد، المصباح المنير في شرح غريب الكبير، مكتبة لبنان، 1989م، ج1، ص: 358.
- ¹⁷ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، ط8، 2005م، ج1، ص: 1221.
- ¹⁸ ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تج: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج2، ص: 121.
- ¹⁹ ابن رشيق القيرواني أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تج محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل، ط5، 1981، ج1، ص: 286.
- ²⁰ السكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد، مفتاح العلوم، ج1، ص: 332.
- ²¹ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، تج: وحيد قطب، دار التوفيقية للتراث، القاهرة مصر، دط، 2012، ص: 260.
- ²² الميداني عبد الرحمان بن حسن حبتكة، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1 1996، ج2، ص: 173.
- ²³ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 285.
- ²⁴ أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبدیع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1982، ص: 277.
- ²⁵ جعكور مسعود، حكم وأمثال شعبية جزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012م، ص: 276.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص: 277.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1_ ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5 1981
- 2_ ابن عبد ربه الأندلسي أحمد بن محمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ
- 3_ ابن فارس أبو الحسين أحمد زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، لبنان، دت.
- 4_ ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414هـ
- 5_ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تح: وحيد قطب، دار التوفيقية للتراث، القاهرة مصر، دط، 2012م.
- 6_ أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1982م.
- 7_ السكاكي يوسف، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 1987م.
- 8_ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، ط8. 2005م، ج1، ص: 1221.
- 9_ الفيومي أبو العباس أحمد بن محمد، المصباح المنير في شرح غريب الكبير، مكتبة لبنان، 1989م.
- 10_ المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل، حققه وعلق عليه وصنع فهرسه د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1997م.
- 11_ الميداني أبو الفضل، مجمع الأمثال، ط2، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
- 12_ جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تح فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1998م.
- 13_ جلاوي عز الدين، الأمثال الشعبية الجزائرية بسطيف، مديرية الثقافة، سطيف، 2007م.
- 14_ حفي شرف، التصوير البياني، مكتبة الشباب، ط2، القاهرة، 1973م.
- 15_ راجح خدوسي، موسوعة الأمثال الشعبية، دار الحضارة، الجزائر، 1997م.
- 16_ ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
- 17_ عبد الرحمان حبنكة الميداني، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1996م.
- 18_ عبد الفتاح عثمان، التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني، بتصرف، مكتبة الشباب المنيرة، 1993م.
- 19_ محمد بن ناصر العبودي، الأمثال العامية في نجد، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، 1979م، دط.
- 20_ مسعود جعكور، حكم و أمثال شعبية جزائرية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012م.
- 21_ يحي بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1914م.